مفاهيم ومصطلحات

الوعى والصراع الطبقى والمصالح الطبقية

أحمد حسين *

ترتبط هذه المفاهيم الثلاثة ببعضها مفصليا، فلا يمكن – فى تصورنا– تعريف إحداها بمعزل عن الآخر. فعندما يتوفر اهتمام أفراد طبقة ما بحقيقة الوجود الموضوعى المشترك وبالتشابه فى ظروف العمل وأوضاعه ومشكلاته، وعندما يتهيأ لهم الاشتراك فى ملمح بنائى معين كالخضوع للاستغلال من قبل طبقة أخرى، فيتوفر إدراك جماعى لهؤلاء الأعضاء للمصالح والأهداف الطبقية المشتركة بينهم، وعندما يتبلور هذا الإدراك أو الوعى الجماعى فى أشكال وتنظيمات ومؤسسات وحركات؛ هنا نتحدث عن أفراد طبقة محددة لديهم وعى طبقى حقيقى– وليس زائفًا– بمصالح محددة يدور حولها صراعهم الطبقى مع طبقات أو مواقع طبقية أخرى. وفى السطور التالية نُعِّرف– بإيجاز شديد– هذه المفاهيم مجتمعة.

فالوعى الطبقى Class Consciousness يعرف باختصار على أنه إدراك أعضاء طبقة ما أو موقع طبقى معين ومعرفتهم لحقيقة موقعهم الطبقى Class Location الذى يشغلونه بدقة، وأن يحملوا رؤى تتسق وهذا الموقع، وبما يربط

*مدرس ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الخمسون، العدد الثالث، سبتمبر ٢٠١٣.

بينهم من مصالح واقعية وأهداف موضوعية مشتركة. وأن يكون لهم مواقف Class Situations من مختلف القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية كالمواقف من السياسات العامة ومن الأحزاب والتنظيمات السياسية والاتحادات والنقابات ومجالس إدارات الشركات التى يعمل فيها أعضاء الموقع ... إلخ. ورغم التضارب الشديد فى المحددات العامة للوعى وتأثيراته فى السلوك الإنسانى، إلا أن هناك من يعرفه بأنه يتراوح بين مجرد التعبير اللفظى Verbalize عن وجود الطبقة أو الموقع الطبقى للفرد حتى الوصول إلى مرحلة الصراع المسلح لتحقيق الأهداف الموضوعية(١).

ويتحدد الوعى الطبقى بشكل أولى عندما يبدأ بالإدراك اليومى؛ الفردى أو شبه الجماعى، المباشر القائم على مشاعر التعاطف والانتماء والولاء بين أعضاء الطبقة، ثم يتبلور تدريجيا ليصبح وعيًا جماعيًا بالمصالح والأهداف المشتركة، وبدائل تحقيقها. وهذا وعى لا يتوفر تاريخيًا وواقعيًا لمعظم أعضاء الطبقة، حيث يبدأ طرحه من قياداتها أو جماعة أو شريحة أو قسم منها تكون أكثر تبلورا وتنعت بالجماعة الاستراتيجية، بوصفها حاملة لخبرات متراكمة من صراعات سابقة. وينمو الوعى الطبقى ويتطور عبر تراكمات من الممارسة والخبرة والصراعات الطبقية التى تعايشها جماعات الطبقة. وثمة مستويات ثلاثة للوعى الطبقى: **المستوى الأول وهو الإدراكى** الذى يعنى بفهم أعضاء الموقع الطبقى لأوضاعهم وأوضاع غيرهم من المواقع الأخرى– فالطبقة مفهوم علائقىRelational Concept. ويركز **المستوى الثانى** على الصراعات والتحالفات الفعلية التى تترجم إلى مناشط وتنظيمات ومؤسسات وحركات لإدارة الصراع وتوجيهه وترشيده. **أما المستوى الثالث**، وهو ذو توجه مستقبلى، فيتجاوز مجرد تحقيق المصالح الطبقية المباشرة أو الآنية Immediate Class Interests إلى تحقيق المصالح الطبقية الأساسية Fundamental أى تغيير مجمل البناء الطبقى والتكوين الاجتماعى الاقتصادى برمته(٢).

الوعى الطبقى إذن على المستوى الإجرائى هو محصلة إلمام ومعرفة أفراد الموقع الطبقى بالقضايا والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المحيطة بهم فى المجتمع. وهو وعى يرتبط بالمصالح والأهداف الخاصة، بكل طبقة أو كل

شريحة من الطبقة، ثم اتجاهاتها أو توجهاتها حيال هذه القضايا وحيال الطبقات الأخرى، وتطلعاتها ومطامحها.

وهناك بالتالى مؤشرات محددة لقياس الوعى أهمها الاتصال الجيد بين أعضاء الموقع الطبقى، ورؤيتهم أو إدراكهم لطبيعة الاختلافات والتناقضات مع الطبقات الأخرى، والسعى لتأسيس منظمات وتنظيمات وتحالفات سياسية، واتحادات ذات مناشط متعددة تجسد مصالح الطبقة وتدافع عنها، أو على الأقل المشاركة فيها بفاعلية، وكذا السعى لدعم حركات النقابات والاتحادات والروابط، وهى جميعا مؤشرات تصب فى اتجاه الفاعلية الطبقية والفعل الطبقى. وهنا نتحدث عن مدى التأثير أو الفاعلية السياسية لأعضاء الطبقة وما يمثلونه من مؤسسات وتنظيمات نوعية تسعى لتحقيق مصالحهم المشتركة. النضال الجمعى هنا مقصده التأثير فى السياسات العامة للدولة ومجمل البرامج المرتبطة بها، ثم محاولات التدخل لتوجيه التشريعات والقرارات التى تمس مصالح أفراد وأسر الطبقة.

أما **الصراع الطبقى** Class Conflict Struggle فيقصد به العمليات الاجتماعية المعقدة التى تربط جدليا المصالح والأهداف الطبقية، بالقدرات الطبقية (القدرة الطبقية هى إمكانية أفراد الطبقة على تنظيم أنفسهم وعلى تحقيق أهدافهم ومصالحهم فى خضم عملية الصراع الطبقى، وهى قدرات تتحدد فى ضوء العلاقات الاجتماعية داخل التكوين الطبقى ذاته. وثمة فرقا بين القدرات الطبقية البنائية Structural Class Capacities، والقدرات الطبقية التنظيمية Organizational Class Capacities. إذ ترتبط الأولى بالتكوين الاجتماعى الاقتصادى السائد ونموه وتطوره، فى حين ترتبط الثانية بالتنظيم الواعى لأعضاء الطبقة). وفى حين تشكل العلاقات الموضوعية التى تنشأ بين الأعضاء – العمال مثلا – داخل عملية الإنتاج أساسا لقدراتهم التنظيمية، فإن العلاقات التى تتم بينهم داخل عملية الإنتاج وخارجها؛ أى خارج نطاق المصنع أو المشروع الإنتاجى أو الخدمى، وفى إطار المجتمع المحيط هى التى تحدد القدرات البنائية للطبقة. وتجسد القدرات التنظيمية قدرة أعضاء الطبقة على التنظيم الذاتى الواعى لأنفسهم كطبقة، فى شكل اتحادات أو هيئات أو نقابات تمثل بدورها بناء تنظيمى للعلاقات الاجتماعية بين الأعضاء –العمال– يتوجه

بوعى نحو تحقيق المصالح المباشرة Immediate. فى حين يعتمد شكل هذه التنظيمات وقدرتها وفاعليتها جزئيا على تطور القدرات البنائية للطبقة ككل. ومن ثم تشكل القدرات البنائية وتحدد القدرات التنظيمية للطبقة، وإلى المدى الذى تمنع فيه الطبقة – العاملة مثلا– من إحالة قدراتها البنائية إلى قدرات تنظيمية فإن الطبقة المهيمنة– الرأسمالية مثلا– تكون قد نجحت فى احتواء التناقضات الكامنة فى بنية النظام القائم، والعكس صحيح، فحينما تنجح الطبقة– العاملة مثلا– فى صهر قدراتها التنظيمية بقوة حول أهدافها الرئيسية يؤشر هذا على قدرات طبقية عالية ووعى طبقى متبلور(٣).

وهناك طرق ثلاث رئيسة يتم فى ضوئها تعريف الصراع الطبقى

أ– إذ يتم التعريف به فى ضوء الوسطاء ؛ أى الأفراد أو الجماعات Agents المنخرطين فى الصراع.

ب– كما يتم التعريف به فى ضوء الأهداف الموضوعية Objectives للصراع.

جـ– وأخيرا يتم تعريفه فى إطار نتائج الصراع أو تأثيراته Effects.

فالتعريف بالصراع عندما يتم فى ضوء **الوسطاء** يعنى أنه لاعتبار أى صراع اجتماعى محدد هو صراع بين الطبقات لابد وأن يكون للفاعلين الطبقيين Class Actors موقع طبقى محدد يمثلونه، أى يكونون جميعا أعضاء فى طبقة محددة، إما كأفراد فى طبقات معينة أو كمنظمات تمثل طبقات محددة أيضا. كما يجب أن تكون خطوط التناقض فى الصراع هى خطوط طبقية Class Lines، فعلى سبيل المثال إذا كان هناك صراع ما بين جماعات دينية ما، حتى لو كان التعارض فى مصالح هذه الجماعات وأهدافها يماثل أوجه التعارض بين مصالح الطبقات الاجتماعية ويتشابه معه، فلا يعتبر صراعهم صراعًا طبقًيا إلا إن انتمى أعضاء هذه الجماعات إلى طبقات اجتماعية يمثلونها فى المجتمع.

ومن ناحية **الأهداف** فإنه لاعتبار صراع ما، هو صراع طبقى فلابد وأن تدور الأهداف الموضوعية الواعية للصراع حول توازن القوى فى المجتمع، أو بتعبير آخر حول توزيع الموارد والأصول Resources/ Assets بين الطبقات. فلا يكفى لهذه

الحالة أن تكون الأطراف المتصارعة هى تنظيمات أو منظمات جمعية تمثل طبقات محددة، ولكن لابد وأن يكونوا متصارعين بوعى حول أهداف وقضايا طبقية.

وأخيرا من ناحية تعريف **الآثار** ؛ فإنه لأى صراع طبقى – بغض النظر عن الأهداف والوسطاء– لابد وأن تكون له تداعيات نسقية Systematic على العلاقات الطبقية(٤). إن الصراع هو بعد اجتماعى من أبعاد العلاقات الاجتماعية بين الطبقات، ويؤشر على وجود تناقض فى المصالح الاجتماعية والطبقية التى تحددها العلاقات الاجتماعية للإنتاج (٥).

وعلى ذلك فإن الصراع الطبقى يجسد الممارسات أو النشاطات التى يأتيها الأفراد والجماعات أو التنظيمات الاجتماعية والسياسية والمدنية والدينية – بوصفهم جميعا فاعليين طبقيين منتمين لطبقات اجتماعية محددة– بغية تحقيق أهداف ومصالح طبقية موضوعية يعيها هؤلاء الفاعلون. ويكون لهذا الصراع نتائج وتداعيات على شكل العلاقات الاجتماعية على مستوى البناء الطبقى برمته.

وأخيرا تعنى **المصالح الطبقية** Class Interests الأهداف الممكنة Potential Objectives التى يمكن للفاعلين الطبقيين - Class Actors أى أعضاء الطبقة وأفرادها- تحقيقها. إنها الأهداف الحقيقية Actual والواقعية التى يمكن إنجازها؛ وبالتالى فهى ليست أهدافا مستحيلة يتعذر تحقيقها أو الوصول إليها من قبل الفاعلين الطبقيين Actual Objectives Of Real Struggles. وتمثل المصالح الطبقية أهدافا للصراع الطبقى يمكن أن تحدث وتتحقق إذا ما توفر لدى الأفراد، فى خضم صراعهم الفهم العلمى السليم لمواقفهم وأهدافهم من هذا الصراع (الوعى الطبقى).

ويفرق بعض الباحثين بين المصالح الطبقية الآنية أو المباشرة Immediate Class Interests والمصالح الطبقية الرئيسة Fundamental Class Interests. **تشكل الأولى**، وهى المصالح الآنية أو المباشرة، الأهداف والمصالح داخل بناء معين للعلاقات الاجتماعية، فى حين **تجسد الثانية** المصالح الرئيسة التى تتركز حول القضايا والتساؤلات أو المشكلات المرتبطة بالبناء الاجتماعى أو بالتكوين الاجتماعى الاقتصادى القائم بذاته فى كليته وشموله. المصالح الراهنة تمثلها الأهداف

الاقتصادية المباشرة (كمثال لدى الطبقة العاملة) مثل الصراع مع الرأسمالية حول تحسين الأجور وساعات العمل وشروطه ومدى ملاءمة بيئة ممارسته، والظروف المعيشية للعمال وأسرهم وفرص التعليم والعلاج والتأمين ... إلخ من تلك الصراعات الدائرة حول الأهداف المحددة والقريبة داخل بنية النظام الرأسمالى. أما الصراع حول الرأسمالية– كتكوين اجتماعى اقتصادى– والسعى للتحول صوب الاشتراكية كمرحلة أخرى من مراحل التطور التاريخى والإنسانى، وتحدى المبادئ الأساسية للرأسمالية وتناقضاتها، إنما يشكل جوهر المصالح الطبقية الأساسية Fundamental للطبقة العاملة.

ولا تعتبر المصالح الطبقية الآنية أو المباشرة زائفة بل مصالح غير مكتملة Incomplete Class Interests. فصراع العمال حول الأجور فى النظام الرأسمإلى يعكس فهما حقيقيا للعمال بطبيعة الظروف المباشرة والراهنة لوجودهم داخل الرأسمالية، ولكن فى المقابل، فإن قصر الصراع الطبقى أو وقفه على مسألة الأجور إنما يعكس فهما غير مكتمل لطبيعة المجتمع الرأسمالى ككل، بسبب الفشل فى الإحاطة بإمكانية تجاوز النسق الرأسمالى للاستغلال برمته وصولا إلى الاشتراكية. وهناك ارتباط جدلى بين كلا النمطين من المصالح الطبقية، إذ لا يتواجدان بمعزل عن بعضهما(٦).

ويذهب الباحثون إلى إنه فى خضم تعقيدات البنى والصراعات الطبقية المعاصرة غالبا ما يتعذر الفصل الميدانى لكلّ من المصالح الطبقية المباشرة أو الأساسية. فالطبقات الوسطى مثلا يصعب الحديث عن مصالح طبقية مشتركة أو موحدة عموما بين بعض جماعاتها وشرائحها البينية وذلك فى ضوء التناقض البنيوى والعلائقى الشديد بينها. **لكن رغم ذلك هناك مشترك أولى فى المصلحة الطبقية** لبعض المواقع الطبقية – الوسطى والعاملة كمثال واضح–. ويتحدد هذا المشترك مثلا فى التمتع بنمط حياتى جيد يؤشر له بالحصول على خدمات اجتماعية جيدة فى مجالات متنوعة كالتعليم والصحة والعلاج والسكن والانتقالات والمواصلات والغذاء ...إلخ. وأن تكون خدمات متميزة بأسعار منخفضة. وكذا تهيئة فرص عمل ملائمة

لها وللأجيال القادمة من أبنائها. ومن المصالح الطبقية المباشرة أيضا – للمواقع الوسطى والعاملة – الحصول على مستويات دخول حقيقية ومرتفعة تمكن أفرادها وجماعاتها من مواكبة الارتفاع المستمر فى الأسعار ومواجهة التضخم والتغيرات فى أوضاع سوق السلع الأساسية والضرورية. وهو ما يسهم فى تحسين أوضاعها المعيشية وتطوير نمط حياتها بوجه عام. إن هناك اهتمام مشترك لدى أعضاء هاتين الطبقتين بتراجع أحوالهما المعيشية وتردى ظروفهما الاقتصادية والاجتماعية. كما أن لديهما قلق مشترك حيال الظروف البنائية التى تضيق من فرص حراكهما الاجتماعى، فالهم الاقتصادى والمعيشى عام ومشترك، لكن الهم الثقافى– الدفاع عن القيم والثقافة والحقوق والمبادئ– ربما يعنى جماعات أو أقسام محددة فقط من الطبقة الوسطى والعاملة . وهى الأقسام التى تكون لها القيادة والفاعلية حينما تسلك الجماعات المتشرذمة للطبقة كطبقة واحدة.

كما يعد على الجانب الآخر وجود مناخ سياسى ديموقراطى، يحترم حقوق الإنسان ويتيح له حرية الفكر والاعتقاد والتعبير والممارسة؛ من المصالح الطبقية التى لا يمكن الاستغناء عنها لكثير وليس لكل من هاتين الطبقتين الوسطى والعاملة. وفى هذا الإطار فإنه من مصلحة الطبقتين الوسطى والعاملة أن يتم تفعيل منظمات المجتمع المدنى– الأحزاب والنقابات والجمعيات الأهلية ...إلخ– وتلغى القوانين المقيدة للحريات وقانون الطوارئ كافة. وأن ترفع القيود عن حرية تأسيس المنظمات المدنية كافة، ولا يتم التدخل فى شئونها الداخلية، وتهيئ لها فرص الاجتماع والتنظيم والحركة والاعتصام ...إلخ. وكذا فإنه من المصالح الآنية لكافة أقسام الطبقتين الوسطى والعاملة أن تتوفر فرص متعددة لتحقيق حراك طبقى أفقى على مستوى التكوين الطبقى أى عبر المكونات المختلفة للطبقة ذاتها، وحراك رأسى صاعد عبر مجمل البناء الطبقى ككل وهو ما يتيح للمواقع الطبقية أن تحقق حراكا صاعدا لأعلى. وأخيرا فإنه من المصالح الطبقية الأساسية Fundamental - لبعض جماعات الطبقتين الوسطى والعاملة أن يتم تغيير مجمل التكوين الاجتماعى؛ والنظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى القائم وتجاوزه، والإتيان بنظام آخر يجسد

توجهاتهما السياسية والأيديولوجية، وينحاز لمصالحهما وأهدافهما الطبقية سواء الآنية أم الأساسية.

المراجع

١- See: J. Pammett : Class Voting and Class Consciousness in Canada , The Canadian Review Of Sociology And Anthropology, Vol. 24, No. 2, 1987., **see also** ,M. Reza Nokhaie And Robert Arnold : Class Position, Class Ideology And Class Voting : Mobilization Of Support For The New democratic Party In The Canadian Election 1984, Canadian Review Of Sociology And Anthropology , Vol. 33, No. 2, 1996., p. 183. p.271.

٢- عبد الباسط عبد المعطى، الطبقات الاجتماعية ومستقبل مصر. اتجاهات التغير والتفاعلات ١٩٧٥-٢٠٢٠، منتدى العالم الثالث، مشروع ٢٠٢٠، القاهرة، ميريت للنشر، الطبعة الأولى،٢٠٠٢، ص ص٤٢-٤٣. وراجع أيضا: عبد الباسط عبد المعطى: الصراع الطبقى فى القرية المصرية، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، الطبعة الأولى، ١٩٧٧، ص ٨٥، ص ص ١٣٥-١٣٦.

٣- -Erik O. Wright: Class Crisis And The State, Verso, London, 3rd Pub, 1993, pp 98-102.

٤- -Erik O. Wright: Classes, New Left Books, London, 1985., pp.32-33.

انظر: إبراهيم العيسوى: نحو خريطة طبقية لمصر، القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٨٥، ص ٢٥.

٥- عبد الباسط عبد المعطى: الصراع الطبقى فى القرية المصرية، مرجع سابق، ص٨٥.

٦- - Erik O. Wright: Class Crisis And The State, op.cit., pp:88-91.